رسالة الرؤيا في بحث الحرية

للكاتب العثماني الشهير المرحوم

محمد نامق كمال بك

مع ترجمة حياته

تعريب

الفاضل معروف افندى الرصافى

قيمته ٩٠ پاره

حقوق اعادة الطبع محفوظة

لجريدة (بغداد)

طبع في بغداد في مطبعة الشابندر

١٣٢٧

obeikandl.com

ترجمة

(محمد نامق كمال بك)

اكتب كتاب الاتراك واشعر شعرائهم في القرن الماضي

ولد سنة ١٢٥٦ وتوفى سنة ١٣٠٦

هذه الترجمة ملخصة من رسالة كتبها رفيق صباه صاحب السعادة ابو الضياء توفيق بك الكاتب التركي ولد كمال بك المشار اليه في قصبة (تكفورطاغي) سنة ١٢٥٦ هجريه وكان جده (ابو امه) محصلاً هناك والمحصل لقب لمنصب قديم في الدولة فارخ عارف افندي احد شعراء تلك الايام مولده بهذا المصراع :

« ايردى شرف بو دهرده محمد كمال ايله »

ومعناه بالعربية (فقد تشرف هذا الدهر بمولد محمد كمال) وقد تسلسل كمال بك من بيت عريق في الحسب والنسب فوالده (مصطفى عاصم بك) وجده (شمس الدين بك) القرين الاول لجلالة السلطان (سليم الثالث) ووالد جده القبطان (احمد راتب باشا) من نوابغ الشعراء ووالد هذا (طوپال عثمان باشا) الصدر الاعظم المشهور ومن اقوال صاحب الترجمة في فضل النسب (ان مزايا الحسب والنسب من الامور التي لا يستطاع القول انها مما لا يرغب فيه او يسعى اليه فان من خالط الناس واختبر اخلاقهم تحقق ان المولود من نسب رفيع افضل من المولود من اصل دنيء) على ان طيب ارومة هذا الرجل لا تزيد شيئاً في تعريف فضله ولو فرضنا انه من اصل دنيء لكان كفواً لاكتساب الفخر والمجد بجده واجتهاده وايرائها لاعقاب اعقابه فلما ترعرع دخل في مدرسة بايزيد فقضى فيها بعض سنين ثم انتظم في سلك تلامذة مدرسة (الوالده) لكنه لم يمكث فيها الا بضعة اشهر فخرج

منها سنة ١٢٦٨ وهو في الثانية عشرة من عمره فقضت الاحوال ان يسير والده بهمة الى (قارصة) فلم يعد يستطيع مزاولة الدرس وذلك دليل على ان ما اشتهر به بعد ذلك من العلم والفضل انما بلغ اليه بالجد والاجتهاد من تلقاء نفسه لا بواسطة المدارس واول ما جال بخاطره واخذ يجامع قلبه في اوان شبابه الشعر فنظم القصائد الحسان وكان اهل الاستانة يتناقلون اقواله ويتمثلون بها ويتحدثون به وبذكائه وظرفه حتى لقبوه (نامق) واول شعر اشتهر به قصيدة نظمها وهو في السابعة عشرة من عمره قال في مطلعها :

ظهوراتك كثرت پرتو نور خدادندر تلون هيأت اشياده تأثير ضيادندر

معناه (ان للكثرة (ربما يريد الجماعة او الاتحاد) لونًا او شكلاً حاصلاً من انعكاس نور الله كما ان الوان الاشياء في الطبيعة ناتجة عن انعكاس نور الشمس) وسار كمال بك في نسق شعره على خطوات الشاعرين التركيين المفلقين (نفعي وفهيم) فبلغ من ذلك شأواً عظيماً ونبغ بالاشعار الحماسيه والفخريه ومن قوله في الفخر :

بزاول عالى همم ارباب جد واجتهادز كيم

جهانكيرانه بر دولت چيقاردق بر عشيرتدن

معناه (نحن نشأنا من امةٍ حقيرةٍ وبجدنا واجتهادنا انشأنا دولة عظمى فتحت العالم) وفي سنة ١٢٧٧ تولى تحرير جريدة (تصوير افكار) وكان مع ذلك يزاول الترجمة في الباب العالي ومن هذا التاريخ اخذت افكاره وآراؤه في الظهور فلم يغادر موضوعاً ادبياً او فلسفياً الا طرقه واجاد فيه فلقبوه (كمال) بدلا من (نامق) وكانت جريدة (تصوير افكار) هذه فاتحة النهضة التركية الحديثة من حيث الانشاء والادب فهي اول جريدة تركية

خاضت في المناظرات الادبية التي استلفتت انتباه اهل اللسان التركي واهم تلك المناظرات ما قام بينها وبين جريدة (روزنامهٔ جريدهٔ حوادث) .

وكانت حداً فاصلاً بين الانشآء التركي القديم والانشآء الحديث ومن ذلك الحين اخذت الآداب الحديثة في الانتشار هناك وكثر اشياعها ومدعوها واتفق اذ ذاك سفر العلامة شناسي مؤسس جريدة (تصوير افكار) الى باريس لمداواة اقتضت ذلك فعهد بادارة جريدته الى كمال بك سنة ١٢٨١ هجرية وكان في ريعان الشبان فاعتزل العلم والشعر وانقطع الى السياسة بالرغم عنه ولا يخفى ما في ذلك من التكلف والمشقة مما لا يفلح فيه الا نوابغ الرجال القادرون على تكييف مواهبهم حتى تطابق وظائفهم ولو اقتصر صاحب الترجمة على نظم الشعر لبلغ منه مبلغاً فاق به (نفعي) الشاعر الكبير ولكنه لو فعل ذلك ما استطاع ما استطاعه من خدمة ملته ووطنه خدمة كان يسعى في سبيلها ليله ونهاره . لا نقول ذلك امتهاناً للشعر فاننا نقدره حق قدره ولكننا لا نرى له ما نرى للنثر من التأثير في ترقية شأن الآداب . ومن الشواهد على ذلك (هيكو وتيرس) العالمان الفرنساويان الشهيران فهيكو اشعر شعرآء الفرنسيس في القرن التاسع عشر ولكنه لم ينفع امته بنظمه كما افادها تيرس بادبه وسياسته (وجملة القول ان كمال بك اندفع بكليته الى السياسة وعلم الاخلاق وهما ركنا الادبيات فبث بين ابناء لغته روحاً عصرية نشطتهم وفتحت عيونهم وقلوبهم وبعد ان كنت لا ترى بين الاتراك عشرين كاتباً اصبح كتابهم يعدون بالمئات والالوف والفضل في ذلك لصاحب الترجمة فانه هو الذي احيى فيهم حب العلم وحبب اليهم الادب بما كان ينشره بين ظهرانيهم او يشنف بها آذانهم من المقالات الرنانة في (تصوير افكار)

وغيره مما قد البس اللغة التركية حلة مصرية جديدة (واول ما نشر من نفثات اقلامه رسالة (دور استيلاء) طبعت سنة ١٢٨٣ (قال ابوالضيآء) وقد املى علي في الساعة الثالثه من الليل في اليوم الحادي عشر من رمضان المبارك سنة ١٢٨٣ هجرية فخبرت بها مقدرته على الانشآء فانه اوعز الي ان اتناول القلم والورق ثم اخذ يملى عليّ فقال (وقتاكه مقدما) فلم اتمالك عن التوقف محتاراً فقال ما بالك لا تكتب فقلت لا اعرف حتى الآن عبارة تبتدى بلفظ (وقتاكه) وكنت اظن انك تخاطبني في شأن من الشؤون فبتسم وقال (اكتب ما اقول لك وستعلم) وما زال يملى علي وهو يخطر ذهابًا وايابا تارة يقف وطوراً يطوف غرف المنزل حتى انتهت الرسالة في الساعة العاشرة فجاءت كما قيل (كالفاتحة مكتوبة على ارز) وما زال ذكرها متغلبًا على كل ما كتبه بعد ذلك (ومن مواهبه الخصوصيه حدة اللسان وقوة الحجه فانه لم يناظر كاتبًا او خطيبًا الا ظهر عليه وافحمه) ومن آثار فضله انه ادخل الآداب التركيه في دور جديد فقد كان كتاب الاتراك منذ ستماية سنة سائرين على خطة واحدة في ارائهم وانشائهم فجاء كمال بك فنوع الانشآء تنويعا هو اساس النسق التركى الحديث (ومما يذكر له انه لم يستخدم قلمه للهجو ولا ادخل في انشائه الفاظًا بذيئة او معانى مخجلة وكان اذا كتب في المواضيع المدنية مثل الحقيقه تمثيلاً واضحًا يفتن المطالع ولو كان من المعطلين وكان يستخدم الفاظًا لغوية ثم يألفه العامة لكنه كان يسبكها في قالب يسهل عليهم فهمها (وكان كثير المطالعة دقيق التنقيب والبحث حتى قيل انه لم يغادر كتابًا تركيًا او فارسيًا مطبوعًا او غير مطبوع من مؤلفات الاتراك او ما ترجموه عن الالمانيه والفرنساويه والانكليزيه الا

طالعه ونبحر فيه وكان قوي الذاكرة الى حد يفوق التصديق حتى يكاد لا ينسى شيئا نظره او سمعه فقد بدلوا عليك الوفا من الاشعار الفارسية والتركيه والعربيه والافرنسيه وكا متمكنا من الفقه وعلم الكلام مدركا لاكثر المسائل الغامضة المتعلقة بهما وقد طالع علم الحقوق على العلامة الفرنساوي الشهير (اميل افولا) ودرس فنى الاقتصاد والسياسة اما التاريخ فقد كان من اكبر علمائه . وهاك اشهر مؤلفاته وترجماته : (تراجم الاحوال) و ترجمة صلاح الدين الايوبي . والسلطان سليم . والفاتح . وامير نوروز (حكايات وروايات وطن (وهي رواية ترجمت الى اللغات الالمانيه والفرنساويه والروسية) وكل نهاية . وعاكف بك . وزواللي چوجق . وانتباه . وجزمى (رسائل) (دوراستهلاء) و (بارقه ظفر) و (قانيزه) و (حكمة الحقوق) و (مكتوب الى عرفان باشا) و (به بزيزون مؤاخذه سنى) و (تخريب) و (تعقيب) و (مقدمة جلال) و (بهار دانش) و (منتخبات تصوير افكار) (مقالات متنوعه) (تصوير افكار) و (مخبر) و (حريت) و (عبرت) (بصيرة) و (حديقة) و (اتحاد) و (صداقت) وغير ذلك من المقالات التى يكتبها الى اصدقائه وفيها الحكم الفلسفية والادبية (ترجماته من اللغات الافرنجية) شرائط الاجتماع (تأليف روسو) وروح الشرايع (تأليف مونتسكيو) وبعض كتابات باكون وفولتى وغيرهما قسم وكبير من كتابات كوندرسه تحت عنوان (تاريخ ترقيات افكار بشر) وكان في اثناء اعماله هذه مشتغلا بتأليف التاريخ العثمانى وهو تاريخ مطول بحث فيه عن عظمة هذه الدولة وما مرت به من الادوار من اول عهدها الى الآن له مقدمه يصح ان تسمي وحدها تاريخ الاسلام لانها حوت كلما وقع من المسلمين من البعثة الى السلطنة العثمانيه

وكل ماوافق ذلك من الحوادث في آسيا وآفريقا واوروبا والمقدمة المشار اليها مكتوبة على نحو الف وخمسمية طلحية من الورق ولكن من موجبات الاسف ان مطالعتها منعت ثاني يوم ظهورها لوشاية بعض ذوى الاغراض فحفظًا لاثار هذا الفاضل نرجو ان يعاد نشرها مع ماتم تأليفه من هذا التاريخ وهو اربعة اجزاء تنتهي بوقائع السلطان سليمان القانوني (وكانت وفاته بعلة الخناق الصدرى فاتمها الا عشرة ايام فقضى بعد ظهر الثامن من ربيع الاول سنة ١٣٠٦ هجريه

انتهى

Oberkandl.com

— مقدمة —

هذه هي الرؤيا الشهيرة بمعانيها الطيبة ، وبالفاظها المستعذبة ، طيف الاديب الكبير شهيد الحرية والدستور المرحوم (محمد نامق كمال بك) عربها السالك على اثره في العلوم والمعارف والمعبر عن رؤياه بمرأة عرفانه الاديب المتقن والشاعر اللسن شاعر العراق على الاطلاق معروف افندى الرصافي .

ونشر صاحب امتياز جريدة (بغداد) الغراء الحر الصادق حضرة مراد بك قدراً يسيراً منها في جريدته بعد ان اخذ المأذونية من شبل ذلك الضيغم حضرة اكرم بك (بدلالة الحر الماجد والافضل الواحد منار الاداب وعلم مكارم الاخلاق الهمام الاوحد حضرة ابو الضياء توفيق بك دام علاه) وبعد ذلك صرف النظر عن نشرها فرأينا احتياج الامة الى فوائدها الكثيرة ، وفرائدها المستنيرة فاحببنا نشرها جملة شوقاً الى نشر المعارف وذويها وطمعاً بذكر الكمالات وبنيها وخدمة لابناء الوطن وتذكرة لاحرار هذا الزمن فاسئل الله ان يوفق الامة للانتفاع بها والاقتباس من انوار حريتها . انه على ذلك قدير .

م رشد

بعد ما وزعنا جريدتنا التي صدرت يوم السبت على قرائها اخذنا نطالع ما نشرته الصحف في ذلك اليوم فقضت النوبة بطالعة صحيفة الشرق الغراء وكان ما ورد الينا منها في ذلك اليوم العدد ٢٠٠ فبينما نحن نقرء منها مقالة كانت قد نشرتها تحت عنوان الخريف اذ طلع علينا رجل تلوح عليه علائم السياحه وتتأرج منه نوافح الركانة والرجاحه فبعد ان حيانا بالسلام جلس في اخريات المجلس .

اما نحن فلم نزل نقرء وهو يرأى منا ومسمع فلما اتممنا تلاوتها تبسم متعجبًا منا وقال :

اني كنت قد رأيت رؤيا منذ ايام واظنها بل يقيني انها سر مقالتكم هذي فجبذا لو اعرتموني اسماعكم وساعدتموني على سردها اليكم ايها الكرام .

فلما سمعنا مقاله وقد اعجبنا بطلاقة لسانه وحيرنا بفصاحة بيانه ولم يكن انسا اذذاك مانع من استماع مقالته احببنا ان نستمع ما يقصه علينا من رؤياه فاعرناه الاسماع وقلنا له شأنك والحديث فاندفع في المقال وهو ينسج الكلام على هذا المنوال :

وما الكون الا كالخيال وطالما * رأينا مثال الكون في عالم الرؤيا

اذا قست ماضيه بمستقبل ترى * كما قيل احلاما باحوالها الدنيا

مساء اليوم الرابع عشر من صفر الخير كنت قد ذهبت الى قصر في بستان قرب خليج ناظر على البحر فجلست في جانب كوة من كوي ذلك القصر مطلة على البحر وقد انتشرت في فضاء خيالي من احوال هذا العالم اوهام وضربت من غرائب آلامه في فؤادي خيام .

اما البحر فقد كان رهواً سوى ان ما كان يتكون في لجه الخضر من صفار

الامواج بباب نسمات الرياح يخيل للناظر انها مركب طيور بيض في ارض خضراء .

واما الحمراء فقد كانت نسماته عليلة تحكي رقتها قلب العاشق تجاه المعشوق وكانت اوراق الاشجار المهتزة بهبوب تلك النسمات تصور للرائي ان لا فرق بينها وبين طرة نائية قد اهتزت لضربان قلبها الشفيق على طفل لها طالما هجرت لراحته الوساد وباتت ولم تذق طعم الرقاد .

ثم اني بما عراني اذذاك من غرائب الاحوال احسست ان نهر بصري قد ابتدأ ينقص وظننت ان ما صورته المشاهدة في لوحة خيالي ليس الا من آثار نصبي الغرامي .

ثم رمقت السماء بطرفي فاذا الشمس قد انحدرت نحو مغرب استنارها ممزقة ما عليها من السحاب فكانها رجل قد قوض بناء مجده الدهر بعدما ضرب على هام السماكين اطنابه فشق من جزعه الجيوب وانجر معتزلا عن الناس الى نار الخمول . وبعيد غيبوبتها اخذ لون الارض يصور برعب عبرته مقابر الفناء تجاه عيني ، حتى لم يبق في اطراف الشمس سوى مايحكي حمرة نار يصح ان تكون انموذج دم قد امتزج بادمع حرت من مقلة يتيم وصار كلما مضى وقت الغروب أتت في نواحي الارض دهشة واستولت على الكون منها بهتة وحيرة .

وقد طفقت البهائم تأنّ فارة الى آجامها والطيور تنعب ذاهبة الى اوكارها حتى لم يمض من الوقت مايسع نحر جزور الا وقد هدأت الاصوات وصرت لا اسمع غير تغريد عندليبين في البر ونغمة مترنمين في البحر .

اما انا فقد اعترى قلبي الخفقان من هول ماشاهدت وحجبت بصري عن

النفس ستور الظلام التي ارخاها الليل على الارجاء حتى احلولك واشتدت ظلمته بحيث لو كنت اقبض على الدجى بكفي لامكن . وصيرة الظلام تلك الاشجار التي كنت انعم في ظلالها هائلة في عيني كأن كلاً منها غول تعرّضت لي في مهمه قفر .

كأن وجه الارض قد زوي الى داخلها . او نيات القبور قد خرجت الى سطحها .

كأن الموت قد تشخص متلفعاً بثياب الحداد فاخذ يطوف في الاطراف .

كأن بدالنهار قد قبضت عن هذه الارض فرمت بها في مهاوي العدم والنسيان .

كأن الدماء المائرة التي سفكتها سيوف الظلم من شهداء الحرية قد انصبت في هيئة بحر احاطت امواج الحمية منه بالجبال ثم جمدت فحفظت بالانجماد هيئة انتفاخها على سطح ذلك البحر .

فعند ذلك اردت ان اجيل الطرف في اطرافي فلم يتعلق (لشدة دهشة الحال) نظري بشيء مما هنالك فكأن نور بصري لاجرأة له ان يتجاوز الحدقة الى الاهداب .

فاطرقت وانا اناجي الله في سري بهذه الخطرات : يارب ! كم مظلوم يسفك دمه تحت سدول هذا الظلام المرخاة بحيث لايراه احد سواك ، كم غدار يحدث غدره لرقاب الغافلين ولا يعلم به احد غيرك ، كم يتيم تسيل سيلان المزاب دموع عينيه ولا يطلع عليه احد عداك ، كم هضيم قد اهتضمته يد الظلم فهو يستغيث ولا يسمعه احد سواك ! ....

فبينا انا مستغرق الفكر في تيار هذه المناجات اذ هاجت زعازع رأت

منها كأن القيامة قد قامت حتى سمعت من الكوة التي كنت جالساً جانبها صكة تستك لها الآذان فانفتحت كأنها باب قلعة انقلعت بقنابل لفظتها افواه مدافع المحاصرين فالتفت عندذلك مذعورا فرأيت نورا ساطعا قد قام عمودا على الارض له من السنا ما يكاد يخطف الابصار ومن السعه ما يحيط بكثير من الممالك والامصار .

ثم امعنت النظر فاذا الزوابع يتلوها غمام قد غمت به الآفاق سوى ان البدر المنير كان من بين ذلك الغمام كاليد البيضاء شاقا لبحر تلك الظلم نصفين .

وحين عطفت النظر الى البحر رأيت امواجه المتلاطمه بحيث لو قلت ان كلاً منها كأنه جبل سيال لكان صحيحاً ، لا بل لم تكن تلك من الامواج في شيء ، فكأنها وهي تمثل هول القيامه ـ قد تكونت من صلاب الصخور فاخذت تقلع بتلاطمها الاطواد المشمخرة وتضرب بعضها ببعض فتقذفها في ابعاد غير متناهية مما هنالك !

او كأنها اكم من الجلامد قد عرتها الزلازل فجعلتها تهتز وتتزلزل على الدوام .

اما سنا البدر الذي كان مطروراً به رداء الظلماء من بين ذلك الغمام فلا يكفي في بيانه انه مجرد نور كان يترقرق على سطوح تلك الامواج ، بل كان يصور لي بهيئة انعكاسه انه مجرة الفلك قد هوت من هول تلك الزوابع فوقعت بين هاتيك الجبال فهي في كل لحظة بصعودها وهبوطها مع الامواج تتراءى في شكل جديد ! او كأن هيئة انعكاس ذلك النور نهر شفاف قد جرى بين تلك الصخور فله من اصطدامه بها خرير يبلغ العبوق .

بيد ان ذلك النور لم يلبث ان اختفاه السحاب فكان كلمح البصر بين انفتاحه وانطباقه وبعد ان اختفى لم يظهر للعيان مرة اخرى .

فكأنه برق تألق في الحمى
ثم انطوى فكأنه لم يلمع

وبعدهذه جعلت لوامع البروق تألق في الآفاق، وعيون نغماء تسكب الغيث في النواحي ولا انسكاب دموع عاشق قد صفعته يد البين بعدما سقاه الهوى كأس الحب دهاقا .

فكلما هبت الرياح العواصف حكت بدهشتها دهشة الزلازل ! . . . وكلما جلجلت السماء خلت من هزيم رعدها ان الارض تأنّ ! . . وكلما اومض البرق وارتعج تبينت تلك السحب المكفهرّة تقذف شعلا من النيران كانها بركانات ! .

ولم تمتد هذه العوارض اكثر من نصف ساعة ، لكنّ كرة الارض لم تزل اذ ذاك تتدحرج في امواج تلك الظلمات كأنها قطعة من جبل اجترفها بتياره السيل الجراف ! .

وقد طالت عليّ تلك الليلة بحيث خلت انها موصول بها الدهر اجمع ! اوانّ صباحها مات فهو منوط بيوم التناد ! . . .

اما انا فما عرا اعصابي بتلك الدهشة من الاضطراب ، وعرض في قلبي من الانقباض كنت مسلوب الراحة ، عديم القرار وقد بقيت حتى مطلع الفجر ادور في حجرتي منشد اقول امرئ القيس :

الا ايها الليل الطويل الا انجلى
بصبح وما الاصباح منك بامثل

ثم غلبني السهر ، حتى صارت اجفاني تقع منطبقة كأنها مريض اضطجع على الوساد . فما اضطجعت في زاوية من زوايا الحجرة الاّ وقد استغرقت في النوم .

آه ! واهاً لها من نومة زادت بها لذائذ الحياة ! فلو ان صبياً احتضنته امه وقد اخذت تكرر برقيق صوتها الالاشيد لاجل تنويمه ، او عاشقاً تيممه الحب وقد توسد زند عشيقته ملتفاً بغدائرها لما احتمل ان ينام نومة هي اهنى من هذه النومة ! . . . .

رأيت في تلك النومة رؤيا ، افدى لها وان كانت طيف خيال الف حقيقة ، وابذل دون كل آن منها اربعين سنة من العمر وان لم تزد على اربعين دقيقة ! . .

رأيتني كأني في صحراء ، وقد طلعت الشمس مشرقة من الافق فاخذت تكسوا ما تمر عليه من الاماكن برداً من اشعة انوارها الساطعة ، غير ان ضياءها لم يكن كما هو معهود لنا الآن بل كان كأنه مايعة من المايعات ! كما ان الالوان التي كنت اراها في تلك الرؤيا ليست كما نعهدها في اليقظة بل كأنها جوهر سيال ترى في العيان وان لم تتعلق بجسم من الاجسام ! . . .

فما مرّ من الزمان ــ والحالة هذه ــ دقيقتان الا وقد رأيت تلك الانوار تستطير منتشرة ، وتلك الالوان تستفيض منحدرة من سائر الاشجار ، والازهار ، والانجاد ، والاغوار ، حتى ان اوراق الاشجار كانت تحكي في لطافتها قطعاً رقيقة من السحاب منتشرة في السماء وقت الاسحار ، والفواكه تضاهي ــ وهي على الاغصان ــ كواكب مشرقة الانوار .

ثم رأيت على الروابي ماله نصف حجم البدر من فرائد الجمان المثقوبة ، وقد اتخذت فيها اوكارها الآف من الطيور التي كل منها في تلونه كالحرباء .

ورأيت في السهول ماهو كامثال المضاب من حجارة الماس المنحوتة ، وقد برزت في ساحة التماعها الآف من البهائم الراتعة .

وكان في ذلك الصباح المبارك من المسرّة والنشاط ما احس منه كل انسان

ن روحه تنمو في بدنه آناً بعد آن، وانها تزايدت بحيث صارت الحياة تستفيض من جميع جسده حتى كأن الحياة سارية في جميع اجزاء العالم : فالازهار كاذوار كانت تتواثب مغردة من غصن الى غصن ، والياسمين يتنفس متلاعبا في الهواء تلاعب الحمام .

ولما سرحت النظر في اطراف رأيت من الازدحام ماظننت به ان اكثر من نصف ابناء الوطن كانوا مجتمعين هناك .

فبينما كان كل منا يسرح طرفه متبرماً بما قد جاوز حد الطبيعة من لطائف تلك البدايع المعجزة التي اظهرتها يد القدرة اذ نشأ من الافق سحاب رقيق يحكي بحمرته شعلة نار واخذ يتمدد في الآفاق رويداً رويدا .

ثم لاحت لنا بين ذلك السحاب فتاة يترشح منها ماء الدلال ويتلألأ من وجهها رونق الحسن والجمال بحيث يليق ان تعتبر « آلهة الحسن » في نظر الوثنيين . وصار كلما ازداد السحاب تمددا ازداد شخصها ظهوراً في العيان حتى انتصبت قائمة تجاه الانظار ، وقد سترها من ذلك السحاب ازار من ركبتيها الى مافوق سرتها ورفعت طرفا منه على كتفها الايمن متشحة به وانزلته الى مابين ثدييها .

وهي فتاة قوية البنية طويلة القامة في اعتدال تبدو قمراً ، وتميس غصناً ، وتزنو غزالا .

اذا لمح الطرف باهر جمالها وناعم بدنها رأى كان الشمس من الاول ولطائف وشي الربيع من الثاني قد تمثلا بأزائه في شكل انسان . وقد كان فرعها الذهبي المرسل على متنها يحكي اشعة الشمس وقت طلوعها ، وكانت اذا رنت انفذت في القلوب لحاظها كانها تستكشف بها خفيات الاسرار .

اذا عاينت ثغرها البسام قلت :

كأنما يبسم عن لؤلؤ منضد او برد او اقاح

او نظرت الى جيدها الحالي وهو عاطل قلت :

فما ذا أجيد قد بدا وهو عاطل يعني ام هذا عمود من الصبح

او تصفحت صحائف الدلال في صدرها

أقرأتك الجمال حرفا بحرف وهو في صدرها المطرز سطر

وقد ركب عليه حقان يسميان ثديين وليسا بثديين بل كأن قرص البدر قد قسم نصفين فعلق كل واحد منهما في جهة من ذلك الصدر .

وقد كان جسمها الشفاف من اللطافة بحيث ترى لونه المنعكسة انواره في ذلك السحاب الذي قد اتزرت به .

وبينما هي تلتفت بذلك السحاب اذ رأينا شعرها وقد اقشعر كشعر لبدة الاسد عندما ينقبض على براثنه للوثبة ولاحت منها علائم الغضب حتى اغر ورق جبينها في نور احمر وقرن التقطيب بين حاجبيها وعادت كأنما يرتمي من نظرها الشزر شرار في مسارح لحظاتها الغضبية .

وبعدئذٍ ابتدأت من منتهي الافق تمشي نازلة الينا مشى مقيد فتتقدم نحونا قدما قدما .

اما انا فقد كنت احس لقلبي مع هذا الشخص النوراني تعارفاً وائتلافاً واجد في صدري منه انشراحاً ، وكنت اذذاك اقول في نفسي ان ما أراه خيال ليس الا ، وايضا اقول في خاطري أبشراً يكون هذا الشخص ام ملكا كريما ، وان كان ملكا فهل يتيسر ان تكون بيننا وبينه معارفة ما ؟

فبينما كنت ـ وانا في حال بين الجزم والتردد ـ أمعن النظر في غريب طرزها، وعجيب طورها، ولطيف شخصها اذ رأيتها كلما رفعت قدما ووضعت اخرى تبين لي معها قطع كثيرة من السلاسل تقع في طريقها فعندذلك تحققت ان هذا الشخص اللطيف هو التمثال السماوي (للحرية) التي لم ازل اسير هواها مسرحاً انظار افكاري في تخيل جمالها الباهر العجيب .

فلما قربت منا (الحرية) بحيث صارت الجماعة بمرأى منها ومسمع رقت فوق ربوة مشرفة وراشت بالتحقير سهام الحاظها الغضبية ورمت بها من حولها من القوم وصاحت صيحة كادت تقطع بفزعها الاكباد حتى خر القوم صعقين ولكل عضو من اعضائهم هزة كما انتفض العصفور بلله القطر فكأنهم قد تفرقعت بينهم الصواعق .

فلما رأت منهم هذا الاندهاش الدال على ان كلاً منهم جبان رعديد بدا منها هيجان ناري كأنه برق تجسم وجعلت تناديهم تقول: ايها الراقدون في نوم الغفلة ! ... ايها الموتلفون بالانحطاط والسفالة ! ... ايها العابدون لاوثان الاسائة ! ... ايها العائلون لذل الجبن والانذعار ! ... ايها المرتكبون كل مذلة وشنار ! ...

أيوم المحشر تفتحون عيونكم ؟ ألاجل تسليمها الى مالك تحفظون اطواق الاسارة التي في رقابكم ؟ ألاجل هذه الحياة الفانية ترضون ان تذكر السنة الدم شنيع جبنكم الى الابد ؟ ألاجل تثقيل موازين القيامة تحملون اثقال هذا الذل والاستكانة ؟ هيهات هيهات لما تزعمون !

ايها الراقدون في نوم الغفلة ! ان الصانع القدير جلت عظمته خلق الابصار لاجل الاعتبار بالنظر الى آثار رحمته وبديع صنعه وانتم معرضون عن هذه

الحكمة الخليلة تجيدون ان تبصروا بخيالاتكم او بآذانكم ! . . عيونكم مفتحة وانتم نيام كأنكم ارانب واذا انمغتموها فانتم اموات ! اعقل امرئ منكم قد حنكته التجارب لا يصيب نظره من الحقيقة ولا قدر رؤيا الصبي الاكمه ! وهذا سعيكم الذي سمتقده لاجل تنبيه افكاركم سعي قليل لا يساوى اجرة الغسال الذي يغسل اثوابكم من ادرانها .

لا تبعدوا ابدانكم عن فرش الراحة فان ليالى العدم اليكم آتيه وها هي بكم ملمة وعليكم نازلة وعما قليل لتصبحن لا تستطيعون السعي ولو رغبتم فيه وعزمتم عليه، ولتكونن ابصاركم لا تطيق النظر وان كانت منفتحة، ولتقصرن ايدى افكاركم من ادراك الحقايق ولو توغلت في تحريها، ولتعودن فرش منامكم ترابا وان كانت من الحديد .

ارقدوا ! . . . ارقدوا ! . . . فلا يلفي لتبديل غفلة الحياة يقظة الممات طريق اسهل من هذا لديكم .

ايها المؤتلفون بالانخراط والغفلة ! . . . ان الخالق عزت كلمته قد اوجدكم مستعدين الى ان تكونوا مظهراً لانواع السعادة الدنيوية والاخروية، وانتم تشبعون بطونكم من حيث تتركون من يخالفكم من اعقابكم امرى الخوف والجوع، وتسمون ذلك توكلا على الله ! تتركون السعي في مناكب الارض مكتفين من العيش بالقوت الزهيد وتزعمون ان هذه الحالة هى القناعة مع علمكم بان الكاسب حبيب الله ! . . .

تتخذون ترك السعى ذريعة الى مقاصدكم الدينية والدنيوية مع ان البراهين العقلية . . . كمة بان لا ينال الانسان بغيته الا بالسعى والاقدام .

تعفروا في التراب ! . . تعفروا ! . . . فما قليل تكونون من هذا التراب الذى انتم عليه ! . . . .

ايها العابدون لاوثان الاساءة ! ... ان الفضل لما يريد قد فضل على الانسان بالعقل ومنحه الارادة والاختيار، وانتم لا زلتم تسلبونهما عن انفسكم، ما عبادتكم الا اطواق الاسارة التي في رقابكم المساة باسمكم عادة او منفعة .

اذا لمستكم الايدي الطاهرة تنهشونها بانياب جهلكم ، واذ رفعتكم الارجل القذرة تلحسونها باسنة خضوعكم . حتى ان هذه الحالة جرت مجرى الدم منكم وصارت من الملكات الراسخة فيكم ! ... انضغطوا تحت اثقال الهوان ! انضغطوا ! ... حتى تذهب هذه الاثقال ممكم الى القبور فان اعقابكم لا طاقة لهم على تحملها .

ايها العائلون لذل الجبن والانذعار ! ... ان احسن الخالقين عز شأنه قد جعل الانسان ذاعقل يزن بمعياره مقادير الامور والبسه لامة الادراك يقي بها نفسه مطامع الملمات وابتلاه بانواع الفتن والمحن ، وانتم لشدة خوفكم من الموت ترمون بانفسكم الى الردى وتلقون بايديكم الى التهلكة فشكم مثل من فر من المطر فوقف تحت الميزاب ، او استجار من الرمضاء بالنار ، يا هؤلاء ! ... الستم الغرقى فما خوفكم من البلل ؟

ولكثرة خشيتكم من السبن تسجنون افكاركم في قعوف رؤسكم وتحبسون حسكم الوجداني في مطاوي افئدتكم وتحرصون سرايا منطقكم وراء حصون شفاهكم وقد استحكم فيكم الجبن حتى اذا رأى احدكم غير شيء ظنه رجلا ، او بدا له ظله في جدار ارتعدت منه فرائصه !

ارتجفوا ! ارتجفوا ! ... فان تفتت ابدانكم محتاج الى مثل هذا الاضطراب .

ايها المرتكبون كل مذلة وشنار ! ... ان رافع الدرجات جل جلاله قدر

كل انسان مطلقا من ادام الاغلال بريا عن تحمل ثقال الاحمال عدا التكاليف المعنوية وما ذاك الا لاجل ايصاله الى مراتب العز والكمال: وانتم لاتريدون لنفاذ انفسكم ان تحمل ظلامة مأت من الفقراء وحقارة آلاف من المساكين مع شدة ضعف ابدانكم ووهنها لواريد تحميل كرة الارض على رؤسكم ومتاعب الكائنات على ظهوركم لما امتنعتم ! وقد جرى مجرى الامور الطبيعية لديكم ان يجعل كل منكم في تذلله عاتقه ركابا لاقدام الآخر الصغير للكبير والكبير للاكبر على حسب تفاوتكم فى المراتب .

انسحقوا ! .. تحت الاقدام انسحقوا ! ... فان وأد اجسامكم تحت الارض يلزمه مثل هذا الضغط و التضييق .

متى تنتبهون ايها الرقود ؟ متى تفتكرون في فوزكم ونجاحكم ؟ متى تعرفون انكم ذوو ارادة واختيار ؟ متى تستيقظون من نوم الغفلة ؟ متى تكونون من ذوى الشجاعة والبسالة ؟ متى تعرفون انفسكم ؟ هؤلاء الاقوام ! اما ترونهم يحثون قلائص الجد مسرعين نحو مغانى المجد والفخار ؟

فما بالكم لاينهض بكم العزم ؟ وقد ثبطكم العجز حتى ابيتم الانبعاث وصرتم خوالف البيوت قابضين على مساكنكم قبض السبع على فريسته بالبراثن والانياب .

أفتضنون ان ستغلبوا المشيئة الربانيه مع شنيع عجزكم وفظيع خمولكم هذا ؟ أفتأملون ان سيبقى لكم الحال على ما انتم عليه ؟ أولم يكن لكم من العقل ماتدركون به ان كل نفس من انفاسكم يقلع حجراً من بناء اعماركم فيرمى به في بلاقع الفناء والعدم .

ويالله العجب العجيب منكم ! اذ ماحاور بعضكم بعضا الا واكثر مقاله الشكوى

من هذا الحال وهو من المحافظين له والقابضين عليه لا يزال عاضاً عليه بناجذيه .

تزعمون ان هذا العالم الذي هو لعبة بيد الحادثات ومضغة بين اضراس التقلبات سيبقى لكم مأوى تسكنونه الى الابد ! فهيهات لما تزعمون وسحقاً لما تظنون ! ! !

اىّ حالٍ من احوال هذه الدنيا التى رأيتموها داماً ولم يطرقه التغيّر ؟ اى حادثة من الحوادث علمتموها قبل حدوثها ؟ وهل يستطيع الاب ان يعلم ولده الجنين من تشكلات الخلقة ، وما فيه من الاخلاق ، وما لديه من الذكاء والفطنة ؟ فاذا لم يستطع فكيف يمكن كشف ما اختفى في بطون الايام من احوال المستقبل ؟ متى وقع الحال مطابقاً للماضي حتى يحكم باحتمال وقوع المستقبل طبق الحال ؟ سيقع كثير مما لم يخطر بالبال ! سيحدث كثير مما لم تنله يد التصور ! . . . جميع ابناء هذا العصر موجهون انظارهم نحو المستقبل ، وانتم لا زلتم جاعلين الماضى مطمح انظاركم كأن يد الدهر الباطشة قد لطمتكم على وجوهكم فردّتها الى خلف وصيّرتكم بحيث لا ترون مواطئ اقدامكم من الارض حتي لا يرفع احدكم قدماً الاّ وقد وضع الاخرى على خطر . هلاّ تأملتم ان لو كان في توجيه الانظار الى الماضي ما تقتضيه الحكمة لجعل الخالق الحكيم جلّت عظمته ابصاركم خلف رؤسكم ! . . . ماذا تحاولون من الماضي ؟ أارجاع ما مضى من اعماركم ؟ فهيهات هيهات لما تحاولون . ماذا ترومون منه ؟ أاعادة ايامه الخاليه ؟ فيا للعجب مما ترومون .

من ذا يستطيع ان يعيد ادوار الزمان الى البدء ؟

عماذا تبحثون من الماضي ؟ أعن سؤدد آبائكم الهالكين فبعداً لما عنه تبحثون ! ويحكم ! ان مامضى فات فليس له ارتجاع وماهو آت آت فليس له اندفاع !

ويحكم ! ليس لكم من سؤدد آبائكم الغابرين سوى قراطيس قد سوّدت بقطرات المداد .

ويحكم ! أفاجسامهم البالية تطلبون ؟ فاذهبوا اذن الى القبور وانبشوها فتنظر هل سوى العظام النخرة تجدون ؟ فبماذا منهم تفخرون وهم في الاجداث مغادرون ولله من قال مفوّقاً نحوكم سهام التهكم والتوبيخ :

اقول لمن غدا في كل وقت ... يباهينا باجداد عظام

أتفخر بالعظام وانت تدري ... بان الكلب يقنع بالعظام

كلٌّ منكم انسان وعلى الانسان ان يجعل عقبه انسانا ، فاجهدوا ان تكون فضائل آبائكم وسؤددهم فيكم وفي اعقابكم كي تغبطكم ارواحهم وتبتهج بكم وانتم في العالم السفلي بدل ان تغبطوهم انتم وهم في العالم العلوي ! . . .

افلا تتفكرون انكم كلما علوتم الى اوج الافتخار بآبائكم حططتم قدرهم الى حضيض العار والشنار ؟

ان هذا العصر عصر الترقي والكمال ، فلا خير في أب لم يخلّف له ابناً اكمل منه ، ما اقبح نوم الغفلة فيكم ! لقد طال رقودكم وعيونكم مفخة ! فاي رؤيا رأيتموها فيه اصابت الحق وطابقت الصدق ؟ ماذا حصل لكم من النجاح في عيشكم هذا سوى تضييع مدة الحياة ؟

أراكم لا تزالون تذكرون مآثر اسلافكم فانتم ماذا تذكر لكم من المآثر اخلافكم ؟ أفتكتفون من بقاء ذكركم بعد الموت بنقش اسمائكم في احجار المقابر ؟ ألم تعلموا ان احجار المقابر لا تبقى مائة سنة مهما سالمتها زلازل الحدثان ؟ .

لقد طلعت شمس العرفان من مغربها وقامت قيامت المدنية القديمة واظهرت

سكك الحديد علامة دالة الارض وافشت السنة المعارف جميع اسرار الطبيعة وعطلت الاسلاك البرقية مجارى الارض وحكت صرخة المدافع على من دلعت لهم السنة قنابلها نفخة الصور هذا وانتم نائمون ! أحتى يوم القيامة لا تنتبهون ؟

ما اشنع ائتلافكم بهذه الغفلة ! كنتم وانتم اطفال لايجاوز طول احدكم الشبرين وكان اقل عزمكم ان تقعدوا في احضان امهاتكم محبوبين مكرمين ، اما الآن وقد ساوى طول احدكم الباعين فلا زلتم تطأطؤن رؤسكم لمن اراد ان يضع قدميه على رقابكم !

هذا نبات الارض التي تطؤنها باقدامكم قد علا حتى ساوى ابدانكم طولا وانتم حتى الآن لم تستطيعوا اقامة ابدانكم بحيث يرى مالها من الطول الخالق .

قد كان آباؤكم الذين تفتخرون بهم وتحبونهم لا ينحنون الا ساجدين لله او متكئين على صوارمهم في الهيجاء ، اما انتم فلا تنحنون الا بين يدي من لا خلاق لهم من اراذل الناس منكبين على اقدامهم تقبلونها رجآء منفعة اوخوف مضرة

هؤلآء آباؤكم مستقيمو الجثث حتى في قبورهم ، وانتم في الدنيا تمشون محدودبين كمن احدودب تحت صفعات الصافعين .

قد طالت يد المدنية وامتد باع الحضارة حتى انها تحاول جعل ما تقدم من ارجل الحيوانات ايديًا وما اعوج من ظهورها مستقيما وتجاهد ان تجعل القرد انسانا ! وانتم تجعلون ايديكم سوآء في الحكم وارجلكم وتلتزمون احديداب ظهوركم التي فطرها الله مستقيمة ، فهلا تثقفون قدودكم بثقاف الاتحاد وتنهض بكم الهمم عن دركات هذه الوهاد فمتى تجنح بكم الهمة الى الرقى الى هام العلياء حتام تبقى انظاركم لامطمح لها سوى الغبراء .

ما اقبح عبادتكم لاوثان الاساءة ! انظروا الى قيود الذل التي انتم بها مقيدون فهل تروق انظاركم اكثر من غدائري المسترسلة ؟

أوليس من العجب العجيب انكم لاتطيقون النظر الى مع انكم حاملون قناطير هذا الحديد من هذه الاغلال التي في ايديكم والقيود التي بارجلكم فيا ليت شعري أهي احسن منظراً في عيونكم من طلعتي الغراء ؟

او ان صوتي الذي يختلب القلوب برقته لم يكن اللطف مسمعاً في اذانكم من صلصلة هذا الحديد الذي انتم به مقيدون ؟

انا التي وهبكم الله اياي هبة تبتهج بها ارواحكم فليت شعري كيف ترجحون هذه القيود التي قيدت اجسامكم بها ايدي الظلمة الطغاة على هذه الهبة التي هي عين لطف الله بكم وعنايته ؟

ان هذه القيود التي تحملونها لو قبضت عليها ايدي اجدادكم بقوتها اومشت ارجل ذوي السعي والاقدام من اخوانكم فوقها لعادت وهي تنميع من حرارة الشمس اذا اشرقت عليها ، وتنفصم من هبوب الرياح اذا نفحتها ، وتذوب من رشاش الماء اذا رش عليها !

وهاهي فانظروها كيف لاتقاوم فتك انظاري بها بل تتفصم تحتها وتتساقط قطعاً قطعاً ! فما بالكم ترتجفون تحتها منذعرين ، وتر تعدون منها مندهشين أفبعد هذا تظنون انها السوام من خثآل الافاعي الرقش وقد اخذت تنهش ايدانكم بانيابها التي نقعت فيها قوائل السموم ؟!!!

الى متى تبقون مقيدين بهذه الاوهام ؟ أفي المستقبل ايضا لا تيممون سرابي الرحاب وتأتونها متبخترين لنيل السعادة التي لا تستراب ؟ !

ما افظع هذا الذل فيكم ! وما اشنع هذا الجبن منكم !

ماذا الذي منه تخافون ؟ أمن الموت ؟ فانظروا متى كان الخوف من دواعي الحياة واسبابها ؟ أم من الشقآء والتعب ؟ فتأملوا من ذا الذي شقي في الدنيا بان حمّل اثقالا هي اكثر ثقلا واعظم مشقة من قيود الاسارة التي انتم بها مقيدون ولاثقالها حاملون ؟ ! قد كان اجدادكم يتخذون الاثر الباقي من دم من خاطر بنفسه منهم لنيل الفضائل واستشهد في طريق تحصيلها عبرةً يعتبرون بها، ووصيةً باتباع تلك الفضائل يتبعونها حتى ان من استشهد منهم في طريق احراز الحرية ، وتوفير سعادة الوطن ، وتحصيل ترقي الانسانية اكثر عددا ممن مات منهم بداهية الوبآء ، او اطباق الحمى ، او داآء الورم او غير ذلك من العلل والامراض ! فلمه تبعدون انفسكم عن هذه الخصال الحميدة التي كانت لاسلافكم مع انكم لهم محبون وبهم مفتخرون ؟ !

ألم تعلموا ان لا محيص من طارق المنون ولو طالت لكم مدة الحياة وكنتم من المعمرين عمر لبد ؟ فاذا علمتم فلمه لا تسعون فيما يبقى لكم الذكر الجميل بعد الموت ؟

هو الموت فاختر ما علا لك ذكره
ولم يمت الانسان ما بقي الذكر

الى متى تزحفون على تراب الذل والهوان طمعًا في ان تجدوا ما تأمنون به الدخول في المقابر ؟ مع علمكم بانكم تموتون على اي حالٍ كنتم ، وباي جنةٍ من الموت اتقيتم ! ألا تجتنبون ذلّ التسوّل واستعطآء الحياة حتى من عزرائيل ؟ ألم تعلموا ان من مات وهو كريم خير ممن عاش وهو ذليل ؟ ألم يطرق اسماعكم قول من قال

واختر لنفسك منزلاً تعلو به او مت كريماً تحت ظل القسطل

على ان اختياركم هذا الذل ورضاكم بهذا الهوان لا يخفف عنكم شدة وطأة الموت فان طعم الموت واحد سواء متم ذليلين او كريمين ! ولله من قال

اذا غامرت في شرف مروم فلا تقنع بما دون النجوم
فطعم الموت في امر حقير كطعم الموت في امر عظيم

ما اشنع اختياركم لهذا الذل والهوان ! اي فائدة تأملونها واي مكرمة ترجون نيلها من تذللكم هذا ؟ انظروا الى وجه الارض وما فيه من التراب فانه من الذل والحقارة بحيث تطؤه الارجل وتسحقه النعال فهل رأيتم او سمعتم ان احدا اخذ بكفه قبضة منه فوضعها على رأسه رحمة لما مما بها من الذل والحقارة ؟

اي اذيال قبلتها افواهكم فالتذت بتقبلها ؟ اي اقدام خرت للاذقان عليها رؤسكم فارتفعت بتقبلها الى السماء ؟ أتجدون طعم السكر في شفاهكم اذا الصقتموها باللابس المملحة تلحسونها ؟ أتجدون عرف المسك في جلود النعال المباولة بعرق الارجل اذ تمسحتم بها ؟ من ذا سمع تأوهكم الذي لا زلتم ترفعون به اصواتكم متظلمين ؟ ماذا نفعتكم الدموع التي تسكبها اعينكم وهي دماء حين تبكون بكاء المسترحمين ؟ حتام تبكون كالصبي المعصوم لعدم نيلكم ما تطلبون ؟ الى متى تسجدون سجدة الشكر كالشيخ المعتوه كلما اوهمتكم الظنون ان قد حصل ما فيه ترغبون ؟ أفلا تعلمون انكم قوم اذلة الا بان تكونوا من تراب الغبراء ؟ افلا ترتفعون الى العلو الا بان تثيركم الرياح وانتم تراب فترتفع بكم نحو السماء ؟ فسبحان الله العلي العظيم ! ما اكثر ائتلافكم بالذل والحقارة ! وما اشد اسارتكم للعوائد الغداره ! أفانتم القوم الذين لا زلت اسمع عنهم انهم اعلا الاقوام

همة واكثرهم بالفضائل اتصافاً وبالبسالة والشجاعة اشتهاراً وبالحمية والمروءة اتساماً واعظمهم للمصائب احتقارا وللمشكلات حلا واكتشافا وللصعاب استسهالا وعلى المهالك اقداما ؟ ما اكذب هذه الشهره وما اخلا تلك الصفات عن المعنى بالمره ! ! !

فلما بلغت « الحرية » من الكلام الى ما ترى واخذت تذكر الملة العلية القدر بما سمعت من تزييف احوالها وتكذيب شهرتها اكتوى قلبي بميسم تأثره فشاط وفي جانبيه لذعة بعد لذعة وسمة فوق سمة فكأني اذ ذاك عاشق نقل اليه الوشاة عن عشيقته ما لا يطيق سماعه من غضبها عليه ونفرتها عنه وذمها اياه !

فعند ذلك لمحت بطرفي ذلك التمثال السماوي وامعنت النظر فيما حوله عازماً على المقابلة له والخصام معه فرأيت في جهة اليمين منه خلقا كثيراً من ذوي الوجاهة والوقار واصحاب النظر والاعتبار .

بعضهم قد بلغ المشيخة سناً وفاق بني العصر علما وفناً كأن شعر اهدابهم ولحاهم خيوط من اشعة شمس العلمية والذكاء التي كنت اراها تلوح بين اعينهم وتنشر انوار التجارب في نواحيها ! .

واكثرهم كانوا اوراداً انتجها ربيع الشبيبة قريبة عهد بما جادتها غرّ سحائب الحياة من ماء الشباب فكان دم اوجههم يغلي بحرارة الحمية حتى اظهر فيها من عنوان الفتوة ، وعلائم علوّ الهمة ما اخجل الاوراد واوجل الآساد .

وكنت ارى القوى المدركة النائمة في ادمغتهم مغرورقة فيما انعطف عليها من شمس العرفان من الانوار اللطيفة التي تحكي في صفائها انوار البدور في الاسحار .

قلب كل واحد منهم ينشر باتهاب حسه الوجداني من حرارة الحمية ما يستوعب بها عالماً كبيراً مثل عالم الكرة الارضية .

وقد رأيت كلاً منهم متهيئاً لردّ الجواب وله مريداً وفيه راغباً اكثر مني بالف مرّة .

اما « الحرية » فقد كانت تجيل من طرفها الفتّان انظارها اللطيفة في تلك الجماعة وتلمحهم بلمحات عشقية فيها من الرقة واللطف ما يقضي منه بالعجب وتكاد به القلوب تختلب .

وكأنها حينئذ لا تسخو بافتتاح الكلام ثانية كي لا يزول تأثير ذلك الكلام السابق الذي انفذته في قلوب السامعين .

وبعد ان مكثت على هذا الحال مليًا رفعت صوتها بالكلام فانشأت تقول:

يا ملوك الحمية واصحاب الهمم العلية . يا من بهم الوطن قد تخصص فهم سرّ مراده المشخص . يا حماة حوزة الملة ورعاة نجاتها من آفة وعلة . يا اساطين ترقي الانسانية وبراهين كمالها بحصول كل أمنية .

ان ما قلته آنفاً من تكذيب تلك الشهرة انما هو بالاضافة الى اولئك الاقوام .

فلا اقسم بالفياض المطلق وهو المعطي الحقيق الذي وهب اجدادكم انواع الفضائل الانسانية واودع وطنكم انواع البدايع الطبيعية ان هذا الترقي الذي اغتنمتموه بايدي الهمة تارة من انياب ذلك التنين المسمى بقيد الاسارة ومرّة من فم تغلّب ذلك الذئب العقور المسمى بالحكم التغلبيّ ، سيخلّد لكم الذكر الجميل في السنة اخلافكم ويبقي لكم عنوان الفخر عند اكابر هداة الاقوام الذين هم اولياء الاحسان للانسانيه .

انّ خطّة التمدّن التي سعيتم بتعميرها لترى الآن موحشة كالمقبرة وحقيرة كالتراب لانّ هذا اوّل شروعكم بتأسيسها اذ قد ابتدأتم به منذ زمن غير بعيد ، ولكنكم على يقين من ان ستظهر لكم فردوس السعادة في المستقبل فلا

تتركوا السعي متفكرين في الماضي ولا تفتروا عنه عاطفين انظاركم الى الحال ، فانّ لكم حق التقدم في تمهيد الطرق الى فيوضات الزمن الآتي وتحرى ما فيه تسريع حصولها .

لماذا لا يليق بكم ان تفتخروا بافعالكم كل الافتخار فانّ ذكركم الجميل بل وافكاركم الصائبة سيشملها البقاء الى الابد وتأخذ بالتزايد والنموّ الى الابد وتكون في الحكم كروح الوقت فتبث الحياة في وجود الجمعية البشرية الى الابد .

اي سعادة يمكن تصورها في هذه الحياة الدنيا اعظم واجل من خدمة هذا المقصد الاقدس الذي تكون نتيجته مثل هذا التوفيق العظيم الانفس سواء حصل بالغالبية او بالمغلوبية .

ماذا عليكم لو افتخرتم بخدمة الوطن مع انّ الوطن الذي هو في سعة عالم صغير، شبيه بالجنان العالية لم يزل مباهياً بكم الاقوام .

الغيرة ! الغيرة ! فان الشرق والغرب ينظران الى ترقيكم في عالم الحضارة بعين الحرية !

انّ عالم المدنيّة يؤمّل اعتدال ميزانه من رزانة اقبالكم عليه ، قد التجأت المعارف باقلامكم ، وناموس الملة باسيافكم ، والهمم بافكاركم ، والحميّة بقلوبكم ! ..

انّي أرى الجهل تجاه افكاركم كخفاش صادف انفلاق الصبح فصار يضطرب كالمصروع من شدة التحيّر ، كما انه تحت قبضة همتكم كذئب تمكّنت منه شفرة الصياد فصار لا يقدر على شيء سوى انه يخرج تحت الشفرة زفير اليأس مكثراً انينه من شدة الحقد والغيظ ! اني أرى النصر ماثلاً بين ايديكم ينتظر امركم بان يحمل راية عزّكم متى ما تأمروه ، كما انّ التوفيق الازليّ قائم ينتظر توجهكم اليه !

تقدّموا ! تقدّموا ! ايها الامّة العالية الهمّة ! فان دار السعادة ورآء مضيق هذا الاضطراب المتوقف اجتيازه على تحمّل مشاق ايّام قليلات !

لم ادر ماذا اعرف لكم ؟ انّ ثمار الكمالات التى حصلت مما زرعتموه من بذور فيض الحمية، وحسنت تربيتها لكم في دار سعادة المستقبل هاهي ظاهرة في العيان فشاهدوها .

§

ثم انتفض ذلك التمثال السماوي راجعًا بسرعة الى حيث اتى ، و نضا عنه ذلك السحاب الذى كان متزرًا به واكتسى بردآء احمر نورانى اشد احمرارًا من جمر تنفخه الريح فى ظلمة الليل !

امّا السحاب الذي انتضاه فقد عاد في يده علمًا في لون ذلك الردآء ايضًا وقد صوّر في وسطه « نجم وهلال » ايمآءً الى علوّ شأن الملة واشعارًا بكمال مسعوديتها ، وقد طرّزت حواشيه طرازًا ذهبيًا ووشيت وشيًا تبريًا مكتوبًا فيه هذا البيت :

يارايةً في يد الحريّة انتصبت بالنصر والعزّ تُعلى كل عثماني

وصار كلما خفقت تلك الراية وتموّجت بهبوب النسيم الذى يحكي الروح في افاضة الحياة رأينا كأن الهوآء قد سطّح كرة الارض بشدة تضييقه وازال اعوجاجها فصارت تتبيّن تجاه الانظار على هيئة اقليم عظيم بجميع بلدانها وصحاريها وانهارها وبحارها .

ثم امعنت النظر فاذا ذلك الاقليم الذى يخيّل للناظرين انه قصر روحاني قد اهبط الى الارض ليكون انموذجًا لعمران العالم العلوىّ هو الوطن المقدس الذى لم نوجد الّا من عطير ترابه .

غير انه لم يبق ولا بالالف واحد مما نعهده فيه من الآثار المادية والمعنوية التي هي من مصنوعات البشر، فلم يك يمكننا ان نعرف بعلامة من علائمه انه هو الملك الذى نحن فيه متعيشون لولا وضعه الهندسي الذى كم فيه من البدايع ما يصعب تصويره بل تصوره ولو في الخيلات الشعرية .

فلما رأيت من الوطن هذا العمران العجيب ذهبت اليه مسرعاً وفي من الشوق اليه والمسرة برؤياه مافي رجل احتضنته السعادة وهو في عالم بشّر اهلوه بالحياة الابدية .

وقد اظلم الفضاء اثناء تقربي اليه ، الا انه استضاء من جميع نواحيه بالتنويرات البرقية حتى اني كلما نظرت الى ما في مدنه ، وطرقه ، وصحاريه من المساكن التي تنتشر منها الانوار الساطعة ظننت ان القدرة الربانية قد اظهرت تجاه نظري عالماً آخر قد زين بآلاف من الاقمار المضية ومئات من المجرات العلوية وملايين من الكواكب الدرية فما انجلت ظلمة الليل بغرة الصبح الا وقد وصلت الى ارض ذلك العمران فرأيت في مسافة كل مرحلة من المدن ما كل واحدة منها اعظم ثروة من عالم كبير واكثر عمرانا من قطعة عظيمة ، وفي مسافة كل فرسخ من القرى ما كل واحدة منها اكبر من امصارنا الآن ، وفي كل محلة من الدور ما كل واحدة منها احسن زينة والطف زخرفا من القصور التي نتبهر بزخرفها ، واشد متانة واحكاماً من القلاع التي نتحصن بها .

اما السكك الحديدية ، والجواد الممتدة ، والانهر الجارية ، والجداول المتشعبة فهي في الكثرة تحكي عروق البدن وشرايينه متصلا بعضها ببعض لم تزل ولا تزال توصل وسائط الحياة الى جميع الجهات بحركة اسرع من الدم في الابدان .

وقد رأيت هناك من الوسائط النقلية ما بعضها يسبح كالحيتان غائصاً في اقصى قعر البحر ، بعضها كالطير محلقاً في جو السماء حتى ان كل فرد من افراد البشر يستخدم في حوائجه كلاً من الاجسام الصلبية والمائعات البخارية كأن خواص الطبيعة قد ظهرت في ساحة انتفاعهم فهم ينتفعون بها كيفما ارادوا ، والاسرار الحكمية قد نضدت في مخازن كتبهم فهم يقتبسون من انوارها مهما احبوا فالذي يُعدّ افقر الناس عندهم هو ارغد عيشاً واهنى حياتاً من اعظم ملوك زماننا هذا ، كما ان الذي يعدّ اغبى الناس عندهم هو اجمع في محفوظاته لانواع المعارف الفنية وصنوف الكمالات الادبية من اعظم ما يوجد في عواصم البلاد المتمدنة من مخازن الكتب العلمية .

وناهيك بالحكم لديهم والامن عندهم فانهما من متممات ارادتهم الاختيارية بحيث قد جعلا كل انسان هناك حراً في افعاله مطلقاً عن اتباع القوانين الطبيعية لاكثر الاشياء المادية .

وبما ان كل واحد منهم في نفسه ذو سلطنة خاصة به يغبطه بها اعظم سلاطين الارض وينفذ بها اوامره المعقولة في الجمعية التي هو منسوب اليها ، ترى الجمعية البشرية هناك كأنها شخص واحد كل جزء من اجزاء جسمه ملك من الملوك ، حتى ان قوى الحكومة التي هي في الحقيقة كالمثلث لا يمكن تشكله باقل من ثلاثة خطوط مستقيمة أبت عندهم ان تكون في يد تغلب شخص واحد يخبط بها كيفما يشاء ويلعب بها كيفما يريد بل ترى كل واحد منهم في نفسه حداً مانعاً لتطاول الآخر كما ان كل فرد منهم متمم في نفسه لتشكل الهيئة العمومية .

لا تزال ترى الوفود المبعوثين من قبل الملة يسعون باتباع العدالة الربانية ان يجعلوا هذه الحياة الدنيا مجردة عن صفة الظلم خلواً عن ظهور الفتن والمحن ،

كما انهم يجهدون ان يجعلوا المحاكم انموذجاً في حكمها بالعدل لديوان الحساب يوم القيامة فتراها كأنها سد من الحديد قد اقيم حاجزا بين الظلم و بين الناس ، وكأن الحكام الموظفين فيها ملائكة تمثلت بصور البشر فاخذت تسابق الكرام الكاتبين في تحقيق الحسنات والسيئآت .

وبما ان نطاق المعارف قداتسع لديهم دخلت القواعد الحقوقية عندهم في عداد العلوم المتعارفة ، كما ان مكارم الاخلاق عندهم في تطهيرها الضمائر وتنويرها السرآئر قداعلمت كل واحد منهم انّ اجرآء ارادات تلك المحاكم وترويجها والانقياد الى اوامرها هو من مقتضيات الانسانيه ومتممات لذائذ الحياة فبسبب ذلك لا يمكن احداً ان يجد مايحتاج الى وضعه من النظام ، كما لا يمكن الموظفين ان يجدوا مايحتاج الى التنفيذ من الاوامر والاحكام !..

ان اصول المؤاخذة عندهم قداوجدت في قلب كل موظف منهم على حسب وظيفته محكمة ذات اسرار آلهيه يحاكم بها نفسه حتى ان كلاً منهم يرى المضجع الذي ينام فيه كالمحدله فقيم فيه الفكر والوجدان عليه مقام ملكي السؤال لاجل مناقشة نفسه الحساب !!!

ان الحريّة (التي بها تستكمل الروح جميع فضائلها وفيها تجد النفس كافة لذائذها وفيها التسلية العظمى للانسان عن جميع متاعب حياته ومشاقها) قداعطت كل فرد منهم حكماً قاطعاً واستقلالاً بارعاً في افعاله وافكاره ونشريّاته ، فينتج اختلاف آرائهم اتحادا ، وافتراق مطالبهم اجتماعاً كالآلات الموسيقية يحصل من اختلاف نغماتها وتباين الحانها لحن واحد بنغم واحد !...

لم تبرح افكارهم في تصديقاتها وتصوراتها مطلقةً من كل قيد عدا منع الاضرار

والاعتداء مصونة عن كل قدح ومعارضة خلا نظر العقلاء فيها وسبرهم اياها بمحك العقل اظهاراً لما عسى ان يوجد فيها من الزيف ، فتراها في كل يوم تخترع بتجاربها العديدة اختراعاً جديداً وتكشف باستدلالاتها السديدة امراً رشيداً ، وفي كل يوم يظهر منها للعيان من الآثار البديعة والامور العجيبة مايعود بالفوائد الجمة على كل فرد من افراد البشر .

اما الآراء العتيقة والانظار الصادقة — التي من خواصها العجيبة انها كالشمس تجلو غياهب الارجاء بضيائها الممتد وتفيض الحياة بنورها المنتشر فهي قد تخلصت من بلية انحصارها في مجالس الالفة كما هي عندنا ، وماذاك الا لان المطابع قد عدت لديهم من الحوائج الضرورية بل كل من بلغ سن الرشد منهم يرى نفسه اشد احتياجا اليها منه الى المأكل والملبس اللذين هما من ضروريات حياته!

فمن هنا ترى خواطرهم الفكرية و تصوراتهم الذهنية لايمر عليها من الزمان يومان الا وقد اوصلتها ايدى المطابع الى مدارك ملايين من الناس ! . . . .

و بما يحصل من تلاحق الافكار التي تنشرها الصحف منهم واليهم اصبح كل فرد منهم في احاطته علما بالحقايق يوازن امة عظيمة في علمها بها .

كما ان كل فرد منهم يرى جميع ابناء ملته اشقاء نفسه وطريق سعادت الوطن طريقاً مشتركاً بينه و بينهم فلا تزال تراهم يجتمعون آلافاً مؤلفة يتذاكرون من امور السياسة فيما هو اهم اعتباراً واعظم خطراً ، ومن مسائل العلوم والفنون فيما هو اشد غموضاً واكثر خفاء .

وقد ارتضعوا كما قيل افاويق الوفاق ولاحوا كاسنان المشط في الاتفاق فلا ترفع الدرجات عندهم الا بالعلم ولا يعتبر الرجحان لديهم الا بالعرفان حتى ان للوضيع فيهم حق البروز للمسابقة في حلبة العلم مع الشريف منهم ولا يحط

في نظرهم الشريف قدراً بالمسابقة مع الوضيع بل الامر بالعكس فيزداد شرفا وفخراً .

ان رعايتهم لقاعدة « ان لمالك حق التصرف فيما ملك » قد جعلت كل فرد منهم يرى ملكه كأنه لم يخلق الا لاجله فهو يتنعم به كيفما احب فتجد كلاً منهم لاجل استحصال جميع ماتحتاج اليه عائلته من الاثاث واستكمال كل ماترغب فيه من لذائذ الحياة قد جعل داره التي يسكنها كمعمل من معامل الصنايع ومدرسة من مدارس العلم ومخزن من مخازن الكتب ومعرض من معارض الغرائب والنفائس يجد فيها كل مافيه يرغب و يلفي كل ماطلب .

وقد اضحى كل بيت من بيوتهم حرماً آمنا مقدسا يكاد يباري بيت الله الحرام في المرتبة فلا يمر بابوابهم الفسق والتعدي ولا يجتاز منها الظلم والتغلب .

وقد اطلقت لهم يد الحرية وثاق المخابرة بعضهم بعضا حتى ان من احب فله ان يوجد في داره التلغراف يخابر بلسانه البرقي من شاء باي لغة اراد على اي رمز واشارة احب فتراه يجمع الشوارد و يحصل الفوائد وهو في داره قاعد .

كل فرد منهم يحب ان يبذل دون ملته النفيس مما يملك ، ولكن الملة لها غنا عما يبذل دونها الباذلون .

كل واحد منهم يود ان يفدي النفس في سبيل وطنه ، ولكن الوطن غني عن ان تقرب في سبيله القرابين .

والحاصل ان كلاً من ابناء الوطن اصبح في فضله وعرفانه امة وحده وتغلب بعلمه ودهائه على القوى الطبيعية حتى لا يوجد في دائرة الامكان من المطالب المشروعه ما يتعذر تحصيله على كل فرد منهم، ولا يلفى في عالم الخيال من اللذائذ والكمالات ما لم يوجد مثله في عالم الشهود .

امّا انا فقد كدت ان يغشى عليّ من شدة تحيّري وفرط مسرّتي بما قد شاهدته في الوطن من هذا البترقي العجيب والتمدّن الغريب فاستيقظت وفكري مغروق بتلك الخيالات التي هي الروح منعشه وللعقل بغرابتها مدهشه.

ثم اني لفرط تولهي بما اعجبني من لطائف تلك الرؤيا وشدة شغفي بما سرّني من محاسنها عزمت على ان انام مرة اخرى ظنّا مني ان اعادة الرؤيا بالنوم ممكنة فاغمضت عينيّ متناوما وحاولت ان انزه طرفي في روض تلك المحاسن واسرح انظاري في عالم تلك الكمالات التي رأيتها من وراء سدول الظلام المرخاة تجاه انظاري فلم اوفق لنيل ما حاولت بعد ذلك حتى الآن أرى تلك الرؤيا اعظم مسرة سمح لي الدهر بها في عمري

﴿ خاتمة ﴾

ان رسالة الرؤيا في (الحرية) رسالة تغني شهرتها عن وصفها كيف لا وهي تبحث عن الحرية التي هي نعم العيش، وباب من ابواب القناعة تأليف اكتب الكتاب العثمانيين المرحوم (محمد نامق كمال بك) الذي ملأ ذكره الدفاتر وطار صيته على جناح البرق والبواخر معربة بقلم العالم الفاضل والاجتماعي الكامل، معروف افندي الرصافي ولما كان ابناء العرب عاجزين عن الاطلاع على ما فيها بادرنا الى طبعها في مطبعة الشابندر ذات الاحرف الطيبة والادوات الكاملة فجاءت بحمد الله تحفة يرتاح لها الاحرار، وهدية تسر الابصار وكان ختام طبعها في اليوم الحادي والعشرين من شهر شعبان المعظم سنة ١٣٢٧ من هجرة صاحب المعجزات صلى الله عليه وعلى آله واصحابه ما جرى قلم بمداد وتم طبع كتاب بسواد

صحيفة	سطر	خطأ	صواب
٩	٢	فقضت	فقضت
١٤	١٠	اليقضة	اليقظة
١٦	٤	يعنى	لعينى
١٦	١١	تلتفت	تلتف
١٩	١٦	وتحرصون	وتحصرون
٢٠	٣	مأت	مئات
٢٠	١٧	افتضنون	أفتظنون
٢١	٦	ان يعلم لولده	ان يعلم ما لولده
٢٦	٨	الارحل	الارجل
٢٨	١٠	من آفة	من كل آفة
٣٢	٢	يمر	وبعضها يمر
٣٣	٤	الصابيه	الصلبة

obeikandl.com